

المدن ، مكافأة النصر ، وبما أن الحديث الآن عن الغنائم والاهتمام
مركز عليها (تصدرها الفضة والذهب والبسة القتال
الصالحة) كان على رأس الهدايا الثمينة التي عرضها مارسليون
(أسود ودببة وخيول ، وكلاب الصيد ، وبغال محملة
بالذهب) ثمنًا لإبرام معاهدة سلام ، بيد أنه كان على رأس الكنوز
جميعًا شكة سلاح جاء وصفها بأنها حوت (خدوشات محلاة
بالذهب ، وسرج مطلي بالذهب وقربوسة من الفضة وسيوف رصع
قرباب كل منها بالجواهر وهكذا دواليك) ، وبصرف النظر عن
الإشارات إلى هذا كله ، أن النعمة العامة المنتشرة في شعر الملحمة
مع سلوك جميع الشخصيات ، اتسمت بالفروسية
، واللامبالاة ، وتحكم بجميع المشاعر الأعمال العسكرية ، فما من
واحد أضاع الوقت - مثلما فعل مقاتلوا هومر دوما - بالتوقف في
وسط المعركة لينتزع جثة واحد من أعدائه ويجمع سلبه ، ويشعر
المرء أنه وقف خلف بساطة المعركة ووحشيتها شعور دقيق بالتمسك
بالياقة .

٦ - أحكام المعركة :

وقال الفارس الأبيض للفارس الأحمر : « طبعًا إنك ستراعي
أحكام المعركة » وقالت أليس تحدثت نفسها وهي ترقب
القتال : « لعلك تتذكرين أن أحد الأحكام هو إذا ما ضرب فارس
فارسيًا آخر يسقطه عن ظهر حصانه ، وإذا أخطأه عليه أن يؤرجح
نفسه من جانب إلى آخر » ، وكان حظ الفارس في القرن الحادي
عشر أثناء المعركة سيئًا ، وقيل له : « إذا أربت البقاء حيا ، من أهم
الأمور التي عليك مراعاتها هي أن تبقى فـرسك واقفا على
رجليه ، وأن تبقى أنت نفسك على ظهره ، فإذا ما ألقيت أرضا ، أو
سقطت ستواجه مخاطر عظيمة ، فاما ستجر إلى الموت جـرا ، أو
ستفقد رقبتك على أيدي أي رجل مسلح يهدف أن يراك » وهدم
السرج في العصور الوسطى على أساس أن يكون له أحزمة

قوية ، وأن يكون وسطه عبارة عن مقعد مبطن أمامه قربوس مرتفع وخلفه واحد آخر ، من أجل ابقاء الفارس ثابتا في مكانه ، ويختلف هذا السرج عن سرج السباق الحديث الذي يمكن الفارس من الانزلاق بسهولة من على ظهر حصانه اذا ماكبا على الأرض ، وذكر الشاعر بشكل واضح (الأبيات ٢٠٣١ - ٢٠٣٤) أنه عندما فقد رولاند وعيه وهو في سرجه على ظهر حصانه نتيجة الألم ونزف دمه « كان حتما سيسقط ، لكنه بقي منتصباً عليه بفضل الأحزمة » وقيل للفارس : « اذا مافتك طعنة رمح الى الخلف ، ستجد نفسك مسنودا بقربوس السرج الخلفي ، واذا ماجعلتك ضربة شديدة بالسيف تنبطح على رقبة الفرس ، أمسك بقربوس السرج الأمامي ، ذلك أن انزياحك عن سرج فرسك هو الطامة الكبرى ، لأنه سيقودك حتما للسقوط على الأرض ، ووقع هذا الحادث مرتين في ملحمة رولاند ، لكن كان ذلك في كلتا الحالتين أثناء مبارزة فربية ، ولحسن الحظ انزلق الفارسان في وقت واحد ، لهذا امتلکا الوقت والمكان ليعودا الى وضعهما السابق ومن ثم متابعة النزال .

وعلى كل حال يمكننا أن نستخرج بعض أحكام - أو لنقل بعض أسس - المعركة التي اتسمت بها المبارزات في الملحمة ، ولا بد هنا من ترك بعض المساحة لأسلوب الشعر ، لكن الخطوط العامة مرجح أنها قامت على الممارسات الفعلية ، وكان القتال الذي يأخذ مداه الكامل يسير نظريا على ستة مراحل :

١ - التحدي : عندما يلتقي المتبارزان وجهاً لوجه ، ويسبق المنازلة تهديدات واهانات (انظر على سبيل المثال الأبيات : ١٢٣٨ - ١٢٤٢)

٢ - المبارزة بالرمح : استخدم المتبارزون في ملحمة رولاند الرمح وفق ما عرف بالطريقة الحديثة ، وهي أن يجري تثبيت الرمح تحت الذراع الأيمن بكل

- ۴۱۱۳ -

قوة ، وأن يسدد في الوقت نفسه نحو صدر الخصم أو خوذته ، وكان الهدف أما خرق صدره أو اقتلاعه من على سرجه بفعل وزن الرمح وسرعة اندفاع الحصان ، ونجد على سجادة بايو التي تعود الى فترة ملحمة رولاند نفسها تقريبا ، الفرسان يستخدمون الطريقتين الحديثة والقديمة معا ، فقد صور بعض الفرسان وهم يحملون رماحهم فوق رؤوسهم وبذلك استخدموا الرمح كسلاح رمي ، ويلاحظ أن الرماح التي استخدمت للرمي كانت قناة كل منها بسيطة بدون زينة ، بينما زينت التي استخدمت في الطريقة الحديثة بعلم مثلث الشكل صغير أو بريشة أثبتت تحت السنان ، تماما مثلما جاء الوصف في رولاند (على سبيل المثال)

(الآيات : ١٢٢٨ ، ١٥٣٩ ، ١٥٧٦ ، الخ)

٣ - المبارزة بالسيف :

١ - على ظهور الخيل :

إذا انقصت الرماح بدون نتيجة حاسمة ، ولم يتوفر تابع للتزويد برماح جديدة ، يشهر المتبارزان سيفيهما ويتابعان القتال ، وكان السلاح في تلك الأونة سلاحا للاستخدام بيد واحدة ، لكن لم يكن أمرا شاذا أن يؤخذ باليدين لتوجيه ضربات قاسية جدا ، ووقتها يرخي زمام فرسه ، ويترك فرسه المدرب يقوم بواجبه ، واستخدم حد السيف ولم يعتمد على رأسه ، وتوجب توجيه الضربات على رأس الخصم ، وإذا ما تفادى الرأس الضربة ، أو صدتها الخونة قد تنزل الى الكتف فتحدث جرحا مميتا يعطل الذراع الأيمن ، أو كما حدث عندما تمكن رولاند من قطع يد مارسليون اليمنى عند مفصلها ، فعمله عن متابعة القتال (البيتان : ١٩٠٢ - ١٩٠٣)

ب - المبارزة بالسيف على الاقدام :

إذا مات رجل المتبارزان وتمكنا من الوقوف على أقدامهما يتابعان القتال بالسيف مترجلين وفق طريقة الطعن والضرب نفسها .

٤ - الدعوة المتبادلة للاستسلام :

غالبا مايحدث في المبارزة الفرية الطويلة ، كالتى قامت بين شارلمان وباليغان (الابيات ٣٥٦٤ - ٣٦٢٤) او بالاحتكام الرسمي بوساطة محنة القتال كما حدث بين ثيري وبينابل (الابيات ٣٨٧٣ - ٣٩٣٠) ، وقفة لاسترداد الانفاس ، ويحق في تلك اللحظة أن يدعو كل مبارز الآخر الى الاستسلام حسب شروط ، واذا مرفض كلاهما يتابعان القتال حتى يموت أحدهما .

٥ - ضربة الموت :

عندما يفقد أحد المتبارزين سلاحه أو يتعطل عن متابعة القتال ، أما أن يدعوه المنتصر الى الاستسلام والأسر ، أو يوجه اليه ضربة الموت ، وأعلن في رولاند (البيت ١٨٨٦) وجوب القتل وعدم أخذ أسرى .

٦ - مباهاة المنتصر وافتخاره :

بعد قتلك لعدوك ، ستتولى تشجيع نفسك ورجالك بكل السباب والشتائم الى الجسد الميت ، وصحيح أن هذه العادة لا تنماشى كليا مع صورة الفروسية لدى الانكليز ، لكنها كانت جزءا من الاجراءات الصحيحة في جميع الملاحم المبكرة ، فعند هومر غالبا ماجاءت المباهاة على شاكلة التحدي وعرضت في خطاب طويل محكم الصنعة ، وكقاعدة يتكون الخطاب في رولاند من بيت او ما يشبه ذلك ، وقد لا يتجاوز القول : « خذ ذلك ، انت يا ... » وهذا مسموح به حتى في المعايير المعاصرة في مثل هذه المبارزات الحامية (انظر على سبيل المثال الابيات ١٢٣٢ ، ١٢٥٣ ، ١٢٥٧ ، ١٢٩٦) .

وغني عن القول أنه اعتبر عملا خيانيا وليس من أخلاق الفروسية مهاجمة انسان من خلفه ، ولم يدع الشاعر أولفر رفيق رولاند ، والبطل الذي لانظير يموت في قتال مباشر ، بل جعله يقتل بضربة قذرة من هذا النوع (البيت ١٤٩٥)

٧ - التدشئة والمرافقة :

كان هناك فوق وأعلى من رباط التابعة العام ايضا الرابط الخاص الذي ربط رجلا بسيد تربي معه وذشأ ، أو الذي ربط سيدا بمرافقه ، وقضت العادات القديمة بإرسال ولد من أسرة كريمة ليتربي ويذشأ ويرعى في بيت سيد رفيع المقام ، ويتلقى هناك ما يحتاجه من تعليم وثقافة ، ويتعلم الأخلاق الجيدة ويدرب على استخدام السلاح ، والرياضة والفروسية ، وإذا حدث وتربي صبيان هكذا وذشأ معا في الجد واللعب ، سيفدوان صديقان من نوع خاص أو لنقل رفيقين ، وسيستمر هذا التقارب مع تنافس الأصدقاء وسيتطور مع تقدم الحياة ، وكان التعاطف بين الرفاق ، أو بين السيد والفتى الذي تربي وذشأ في بيته قوية جدا ، وغالبا ماغطت علاقات القرابة بالدم ، وهكذا نسمع عن « العزاب الشباب » في بيت شارلمان « الذين دعاهم بأبنائه » ، ونرى كيف مضي تفكير رولاند ساعة موته فقط نحو « الرجال في صفه » بل أيضا نحو « سيده شارلمان الذي رعاه ورباه منذ أن كان صبييا » ، وبشكل خاص نحو « رفيقه » أولفر ، وسنلاحظ أيضا أن كل واحد من الأتراك الاثني عشر كان له « رفيقه » ولذلك غالبا وردت الأسماء بشكل مزدوج : غيرين وغيرير ، ايفز وايفوز ، أوثون وبيرنغر ، أنسيس وساندسون يبدو أن الزوج المتبقي جيرارد أوف روسيلون وانغلر أوف بوردوازدوا معا من خلال المرافقة ، ولهذا لم يرد ذكرهما بشكل خاص ، ولعل ذلك أيضا بسبب أن جيرارد عرض بمثابة رجل عجوز

٨ - الخيول والسيوف :

لعله ليس من الضروري كثيرا اظهار أهمية الخيول الجيدة والسيوف الماضية ولا الإلحاح على العواطف تجاههم مع مراعاة هذه الممتلكات الثمينة والعناية بها ، وهذا ليس بغريب فعليهما اعتمدت سمعة الرجل المقاتل وحياته ، وكان فقدان أحدهما معناه كارثة حقيقية وأن نرى وقوع أحدهما بيد العدو فذلك يسبب العار

- ٤١٦ -

والشعور بالاسى ، ومنحت السيوف والخيول المتميزة أسماء تشرفها وترفع من قدرها ، ونلاحظ أن الأمير المسلم باليغانت قد منح سيفه اسما حتى لا يبدو بحال من الأحوال أقل منزلة من سيف شارلمان وسيمر بنا في نص رولاند أسماء العديد من السيوف المسيحية والاسلامية .